حارة الضبع أو دمشق ٢٠١٧

المسلسل لم يدّعِ يوماً أنه عمل وثائقي ونحن من ألصقنا هذه الصفة به وهي أكبر منه

| سامي مبيض

منذ سنوات كتبت مقالاً مطولاً بينت فيه الأخطاء التاريخية التي وقع فيها الجزء الأول من مسلسل «باب الحارة»، تحدث مثلاً عن موضوع «باب» الحارة نفسه، الذي أظهر العمل بأنه كان يُحرس ليلاً ولا يفتح بعد المغيب إلا لأهالي الحي. هذا الكلام لا ينطبق إلا في زمن الغزوات والحروب وليس في حالات السلم لأن دمشق كانت دوماً مدينة نور وعلم وتجارة، لا تُقفل أبوابها السبعة أمام الغريب بل تستقبله بأيادٍ مفتوحة، وهي لم تغلق أبوابها يوماً أمام كل من لجأ إليها عبر التاريخ باحثاً عن علم أو مسكن آمن، هارباً من جوع أو عطش أو خوف في بلاده.

تساءلت مستغرباً أننا لم نر سينما واحدة في «باب الحارة»، ولا جريدة أو قصيدة شعر، علماً أن دمشق في مطلع الثلاثينيات كانت مدينة متطورة ومتنورة للغاية، فيها صناعة سينما، ومسارح، وقانون سير مركبات، وتراموای، وندوات أدبية، وحقوق نشر للمؤلفين، وحفلات موسيقية لأكبر الفنانين العرب. كانت دمشق مسرحاً لنشاط سياسي رفيع، فيها أحزاب وتظاهرات نسائية ورجال فكر وقانون وجامعة عصرية قل مثيلها في العالم العربي. أعيان دمشق يومها كانوا شكري القوتلي وعبد الرحمن الشهبندر وفارس الخوري وفخري البارودي، وليس الخضري والقهوجي والحلاق والفران، مع فائق الاحترام لتلك المهن. وبذلك الزمن لم تكن أعيان المدينة تلبس الشروال بل البدلات الرسمية أو القمباز المقصب والطربوش الجوخ، فالشروال كان حصراً للفعالة وللعمل الزراعي في غوطة دمشق. الطربوش لم يكن يضع «طب» على الطاولة، فهذا فال بشع عند الدمشقيين، لا يضع إلا على نعش الميت في الجنائز، وحينها سيدات دمشق المسلمات كنّ يرتدين الأبيض الناصع وليس الأسود، كما أظهر المسلسل في الكثير من حلقاته.

دمشق لم تكن يوماً تشبه شيكاغو أو صقليا في أفلام المافيا، فلا أحد يخرج سلاحه للقتال فالخنجر سلاح أبيض لم تكن فرنسا تسمح باستخدامه بهذا الشكل. أخيراً فإن سيدات دمشق كنّ مثالاً للرقي والأنوثة والاحترام، يعرفن الأصول جيداً حتى لو لم يكن إلا القليل منهن يجيد القراءة والكتابة، فالمرأة الشامية كانت أميرة في بيت أبيها وملكة في دار أولادها، تدير شؤون منزلها بدقة بالغة حتى لو أشعرت زوجها بأنه هو الآمر الناهي في هذه الدار، فالكلمة العليا كانت دوماً لها وحدها.

كل هذه التفاصيل الصغيرة أعرفها جيداً بالتوارث والمشاهدة والممارسة كما يعرفها أهالي دمشق كافة. إلا أنني ومع كل التحفظات على هذا المسلسل، فلا مانع لدي من التعامل معه كعمل كوميدي ساخر أو كفنتازيا اجتماعية وليس كوثيقة تاريخية أو «ملحمة دمشقية» كما يصر البعض على إظهارها. في نهاية المطاف شئنا أم أبينا، هي قصة نجاح سورية دخلت تاريخ الدراما السورية والعربية. اليوم يدخل «باب الحارة» جزأه التاسع ونلاحظ غضباً عارماً في الأوساط السورية عامة من مضمونه، يصل إلى حد المطالبة بمقاضاة مخرجه أمام القضاء بتهمة الإساءة والتشويه لمدينة دمشق وماضيها العريق. مع كل التحفظات على هذا المسلسل، فهناك الكثير من المبالغة في هذا الطرح، فالمسلسل لم يدع يوماً أنه عمل وثائقي، في إعلاناته التجارية ولا في شارته ولا في أي تصريح لمخرجه أو أحد أبطاله، بل نحن الذين ألصقنا هذه الصفة به، والتي هي أكبر منه بكثير، ومع الأسف تم التعامل معه داخل سورية وخارجها على هذا الأساس.

> دمشق لم تكن يوماً تشبه شيكاغو أو صقليا في أفلام المافيا، فلا أحد يخرج سلاحه للقتال فالخنجر سلاح أبيض لم تكن فرنسا تسمح باستخدامه

ليس دفاعاً عن «باب الحارة» ولكن ما الفرق بين شخصيتي «أبو بدر» وزوجته «فوزية» وبين «ياسينو» وزوجته «فطوم» بطلي «صح النوم»، المسلسل الكوميدي الأشهر في تاريخ الدراما الذي عرض لأول مرة قبل قرابة نصف القرن ودخل كل بيت عربي من المحيط إلى الخليج؟ نقول مثلاً: إن «باب الحارة» أظهر سيدات دمشق بشكل مهين، وهو كلام صحيح، ولكن ما الفرق بين ذلك ومشاهد الراحل خالد تاجا وهو يصفع زوجتيه بعصا الخيزران في مسلسل «أيام شامية»، علماً أنه العمل الأشهر والأقرب إلى قلوب الدمشقيين. للتوضيح أنا لا أقارن بين تلك الأعمال الخالدة و«باب الحارة» ولا أحمل أياً منها تهمة «تزوير» تاريخ دمشق، بل أتعامل معها حصراً كمسلسلات ترفيهية لا أكثر. لو أراد أحد منا أن يعرف تاريخ دمشق الحقيقي فعليه بقراءة مراجع علمية بدلاً من مشاهدة الأعمال التلفزيونية التجارية، وحكماً سيستفيد من قتيبة الشهابي أكثر بكثير من بسام الملا.

انتهينا إذاً من اعتبار أن «باب الحارة» عمل خيالي، ولكن ماذا عن الأعمال المعاصرة التي تدعي أنها توثق لمدينة دمشق اليوم؟ هل دمشق عام ٢٠١٧ هي أفضل وأجمل من «حارة الضبع» الوهمية بكل عيوبها، وهل نحن اليوم سكان دمشق وقاطنوها أحسن حالاً من شخصيات «باب الحارة»؟ شوارع باب الحارة أنيقة ونظيفة، لا تشوهات بصرية فيها، لا حواجز ولا ستائر ترابية أو«كولابات» لشخصيات من ورق وتجار حرب لم يروا ساحة المعركة بحياتهم. في «باب الحارة» لا أحد يرمي قمامة على الأرض، ولا أحد يقود سيارته بعكس السير وهو شاهر سلاحه، متجاهلاً القانون وشرطة المرور والمواطن معاً. لا يوجد مجلس نيابي يقطع جميع الطرقات المؤدية إليه عند اجتماع «نواب الشعب» في وسط العاصمة دمشق، معرقلاً حياة الناس ومصالحها. في تلك الحارة الافتراضية غلبت الشهامة على الزعرنة، وتغلب الحق على الباطل، فلا تفييش ولا تعفيش ولا ترفيق في تلك الحارة، فأهلها كانوا يخافون العيب ويفرقون جيداً بين الحلال والحرام، يعاقبون المرتشي والفاسد بدلاً من وضعه في صدارة المجتمع، وينبذون الخائن.

أتعرفون أين الاساءة الحقيقة لدمشق؟ هي في الأعمال المعاصرة، تلك الأعمال التي تتحدث عن «الأزمة» وحياتنا اليومية في دمشق، عن فقدان المواد الأساسية للعيش وغلاء الأسعار، عن انقطاع الكهرباء لساعات وساعات، عن طوابير الانتظار على أبواب الأفران ومحطات البنزين، عن أسعار السوق السوداء لمادة الفيول، عن فساد المشافي والقضاء، عن تسيب التعليم، عن بيوت البغاء، عن تهريب الآثار والمتاجرة بالبشر، عن سرقة المنازل واستغلال حاجة الناس، عن معاناة اللاجئين والمفقودين والمخطوفين.

لا هذه المدينة هي دمشق ولا تلك التي تظهر على شاشات الفضائيات العربية، ونرفض أن تكونا دمشق، دمشق الحقيقية ستعود، وستنفض غبار الحرب عنها، فهذه سنة التاريخ وسنة الحياة معاً، ولكن أخشى ما أخشاه أن يأتي يوم ولو بعد سنوات ونرى أعمالاً درامية تتحدث عن مجتمعنا اليوم وتعتبر أن هذا الحال المشوه هو دمشق، لأننا يومها سوف نترحم على.. «أيام باب الحارة».

الدراما السورية.. تحدي الاستمرارية والنوعية

ترجمان: دعم قناة الدراما والحفاظ على هويتها وإقامة مهرجان تلفزيوني سوري

من وقائق الجلسة التشاورية

من مسلسل «أزمة عائلية»

| الوطن

بحضور وزير الإعلام محمد رامز ترجمان، عقدت المؤسسة العامة للإنتاج التلفزيوني والإذاعي مساء السبت الماضي جلسة تشاورية تحت عنوان «الدراما السورية تحدي الاستمرارية والنوعية»، جمعت فيها عدداً من الفنانين والقائمين على الإنتاج الدرامي، ولعلها ليست المرة الأولى التي يجتمع فيها العاملون في الحقل الدرامي لطرح مشاكلهم وهواجسهم من أجل تحسين المنتج الدرامي. وكان لهذه الدعوة التي وجهتها مديرة المؤسسة ديانا جبور أثر إيجابي لدى الحضور، وخاصة أن هدفها بحث ومناقشة قضايا الدراما السورية وأهم المعوقات التي تواجهها وخاصة في ظل الأزمة التي تمر بها سورية، ولاسيما أن وزير الإعلام افتتح الندوة طالباً من الجميع التحدث بشفافية وجرأة وطرح كل ما يخدم العمل الدرامي السوري.

السكة الصحيحة

واعتبر ترجمان أن هذه الجلسة محاولة جادة لإعادة الدراما السورية إلى السكة الصحيحة من خلال طرح المشاكل التي تعاني منها وإيجاد الحلول المناسبة لها.

ووعد وزير الإعلام بالعمل على تطبيق كل المقترحات خلال الفترة القريبة المقبلة، كما أكد سعيه لإقامة مهرجان تلفزيوني سوري يهدف للحفاظ على صناعة الدراما السورية وإنشاء مجلس أعلى للدراما، كما شدد على إحداث معهد عال للفنون السينمائية، ودعم قناة الدراما والحفاظ على هويتها لكونها سفيرة أعمالنا المحلية إلى السوق المحلية والخارجية.

أما فيما يخص الفنان السوري الذي غادر البلاد لأسباب مختلفة فقد أكد الوزير أن المواطن السوري بغض النظر عن نوعية عمله مرحب به في وطنه ولا يحتاج إلى دعوة للرجوع إلى بيته.

عنق الزجاجة

من جانبها رأت جبور في هذه الجلسة محاولة لتلمس أكثر من تحد لمواجهة الدراما السورية سواء في النص أم الإنتاج، وأيضاً المضاربة في التوزيع وبالتالي تقديم اقتراحات للخروج من عنق الزجاجة التي حشرت فيها الدراما السورية.

نقاط أساسية

وأثار بعض الفنانين عدة نقاط أساسية اعتبروها السبب في غياب الأعمال الجيدة التي تشكل قيمة مضافة إلى مسيرة الدراما السورية، منها الدخلاء على هذه الصناعة ممن وصفوا أنفسهم بالمخرجين أو المنتجين وساهموا في انحدار المستوى، وغياب بعض النجوم السوريين خارج الوطن لأسباب مختلفة، وعقبات أخرى واجهتها وتواجهها الدراما على صعيد النص الأدبي والقيمة الفكرية لمضمون العمل وانتهاء بمشاكل ترويج الأعمال السورية عبر المحطات الفضائية العربية، ومن بعدها تم تقييم مسيرة الدراما السورية في السنوات الأخيرة.

محطات خاصة

وطرح البعض اقتراحاً بإنشاء محطات تلفزيونية خاصة، ومنهم المخرج نجدت أنزور الذي اعتبر أن الدراما السورية محاربة، وأن وسائل الإعلام الخليجية تحاول تمييع الدراما السورية منذ عام ٢٠٠٦، لافتاً إلى أن الحل يكون بإنشاء محطات خاصة.

وأشار الفنان رشيد عساف إلى أنه لا توجد محاربة مقصودة للدراما السورية عبر المحطات العربية، لكن التقوقع البيئي دفع تلك المحطات لإعطاء أعمال بلدها الأولوية في العرض، لذلك يجب إنشاء محطات خاصة مهمتها عرض الأعمال السورية والعربية، وكان هذا أيضاً اقتراح الكاتب سامر إسماعيل الذي رأى أن إنشاء هذه القنوات يدعم عرض الأعمال الدرامية السورية ويحقق نوعاً من الاستقلالية ويحرر النص السوري من تحكم بعض المحطات العربية.

ملتقى تلفزيوني

الفنانة شكران مرتجى التي كانت أول المتفاعلين مع أزمة الدراما السورية عندما أطلقت هاشتاغ «أنا مع الدراما السورية» مقترحةً إقامة ملتقى تلفزيوني تسوق من خلاله الأعمال السورية بدلاً من التسول على أبواب المحطات العربية.

ناس جهلة

بدورها أوضحت الفنانة سلافة معمار أن الدراما السورية تعاني خللاً في البنية التحتية، مبينة أن العمل الدرامي أصبح حرفة أو كاراً يفتقر للأكاديميين، وأصبح الممثل هو الأكاديمي الوحيد في هذه الصناعة، على حين يدير العملية الإنتاجية ناس جهلة.

مبلغ سنوي

أما المخرج أحمد إبراهيم أحمد فقد دعا إلى ضرورة تخصيص الحكومة لمبلغ سنوي يقارب المليار ونصف المليار ليرة سورية يتم توزيعه على نحو ١٠ مسلسلات لتكون حصة كل عمل نحو ١٥٠ مليون ليرة أي ما يعادل ٣٠٠ ألف دولار، لتساهم بذلك بنصف القيمة الإنتاجية إلى جانب المنتج، وهذا الدعم لا يشمل الأعمال الشامية التي تستطيع التسويق لنفسها عبر المحطات حسب قوله.

المال الخليجي

واعتبر المخرج أسعد عيد أن الدراما السورية محاربة لأنها تحمل رسالة فكر وثقافة، والمشكلة الرئيسية في عدم وجود نصوص قوية ومعظم الشركات المنتجة مرهونة للمال الخليجي باستثناءات قليلة.

أزمة تسويق

وعن أزمة تسويق الأعمال السورية بالتحديد بين المنتج عدنان حمزة أن المحطات الخليجية تهرب من الأعمال الاجتماعية خوفاً من بعض الإسقاطات السياسية لذلك تلجأ إلى الأعمال الشامية، إضافة إلى تحججها بعدم قدرة الأعمال السورية على جذب المعلن، وهي حجة المحطات اللبنانية كذلك التي وضعت الأعمال السورية ثالث أولوياتها بعد الأعمال اللبنانية، كما كشف عن جشع بعض المنتجين السوريين وتنافسهم عبر المحطات بغرض العرض فقط.

من جانبه لفت المنتج فيصل مرعي إلى أن الحكومة السورية في وقت معين قصرت تجاه الدراما السورية، مشيراً إلى أن الحل هو إنشاء مؤسسة مشتركة بين القطاع الحكومي والخاص، مع ضرورة عدم الاعتماد على الربح من التسويق للمحطات الخارجية.